نفحات من عبق السيرة النبوية

الدرس السادس والعشرون

عناصر المحاضرة:

1. فتح مكة المكرمة.
2. غزوة حنين.
3. غزوة الطائف.

دخول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكة المكرمة:

وفي الصباح تقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس! من هذه؟ فيقول: بنو فلان (مثلاً بنو سليم) فيقول: ما لي ولبني فلان، حتى مرت كتيبة الأنصار، يحمل رايتها سعد بن عبادة فقال: يا أبا سفيان! اليوم يوم الملحمة (يومُ المَقْتَلةِ العُظْمى)، اليوم تستحل الكعبة (يَحِلُّ لنا القِتالُ عندَ الكَعبةِ) فقال: يا عباس! حبذا يوم الذمار.

ثم مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرين والأنصار، ولا يرى منهم إلا الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، قال العباس: يا أبا سفيان! إنها النبوة. قال: نعم إذن

✉ثم أخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمقالة سعد، فقال - صلى الله عليه وسلم "كذب سعد(أخْطأَ)، هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة"، وأخذ الراية من سعد، ودفعها لابنه قيس.

❍«ولكنْ هذا يومٌ يُعظِّمُ اللهُ فيهِ الكَعبةَ»، أي: بإظْهارِ الإسْلامِ حَولَها، وأذانِ بِلالٍ على ظَهرِها، وإزالةِ ما كان فيها مِن الأصْنامِ، ومَحْوِ الصُّوَرِ الَّتي كانت فيها، وغيرِ ذلك. «ويومٌ تُكْسى فيه الكَعبةُ»، قيلَ: لأنَّهم كانوا يَكْسونَها في مِثْلِ ذلك اليومِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَأْتِ لاحْتِلالِها، أو الانْتِقامِ مِن أهْلِها، وإنَّما غَرضُه نُصْرةُ دِينِ اللهِ، وعِزَّةُ أهلِها بالإسْلامِ. الدرر السنية

✉وبعد مروره - صلى الله عليه وسلم - أسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ لأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، فأسرع الناس إلى بيوتهم وإلى المسجد الحرام.

✉ولما وصل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ذي طوى أمر خالد بن الوليد قائد الميسرة أن يدخل مكة من أسفلها من طريق كدى، وإن عرض له أحد يحصده حصداً حتى يوافيه على الصفا. وأمر الزبير قائد الميمنة وحامل راية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدخل مكة من أعلاها من كَدَاءٍ، ويغرز رايته بالحَجُونِ، ولا يبرح حتى يأتيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وأمر أبا عبيدة قائد الرجالة ومن لا سلاح له أن يأخذ بطن الوادي حتى ينزل بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

✉ وَوَبَّشَتْ قُرَيْشٌ أَوْبَاشًا بالخندمة، قالوا: إن كان لهم شيء كنا معهم، وإلا أعطينا الذي سئلنا، فلما مر بهم خالد حصد اثني عشر منهم في مناوشة خفيفة، وفر الباقون، ثم تقدم خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الصفا، وقتل من رجاله اثنان ضلا الطريق وشذا عنه.

✉أما الزبير فنصب الراية بالحجون عند مسجد الفتح، وضرب قبة فيها أم سلمة وميمونة - رضي الله عنه -، ولم يبرح حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فاستراح قليلاً، ثم سار، وبجانبه أبو بكر - رضي الله عنه - يحادثه، وهو يقرأ سورة الفتح، حتى دخل المسجد الحرام، وحوله المهاجرون والأنصار، فاستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت وهو على الراحلة، ولم يكن محرماً، وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: { وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } { قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ } ، والأصنام تتساقط على وجوهها.

تطهير الكعبة والصلاة فيها:

✉فلما فرغ من الطواف دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة، وأمر بفتحها، ثم أمر بما فيها من الأصنام فأخرجت وكسرت، وأمر بما فيها من الصور فمحيت، ثم دخلها هو وأسامة بن زيد وبلال، فأغلق الباب، واستقبل الجدار الذي يقابله، وهو على بعد ثلاثة أذرع، وعن يساره عمود وعن يمينه عمودان، ووراءه ثلاثة أعمدة، فصلى ركعتين، ثم دار في البيت، وكبر في نواحيه، ووحد الله.

لا تثريب عليكم:

✉ثم فتح الباب، وكانت قريش قد ملأت المسجد الحرام صفوفاً، فأخذ بِعِضَادَتَيِ الباب فخطب خطبة بليغة بين فيها كثيراً من أحكام الإسلام، وأسقط أمور الجاهلية، وأعلن عن ذهاب نخوتها، ثم قال: "يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم"، قالوا: خيراً أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: "لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء".

✉ثم نزل وجلس في المسجد الحرام، ورد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وقال: خذوها خالدة تالدة، ولا ينزعها منكم إلا ظالم.

البيعة:

ثم أتى الصفا فعلا عليه حيث ينظر على البيت، فرفع يديه يدعو، ثم بايع الناس على الإسلام، وممن أسلم يومئذ أبو قحافة والد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - ففرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإسلامه، "جَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِأَبِيهِ يَقُودُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلَّا تَرَكْتَ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى كُنْتُ آتِيهُ فِي بَيْتِهِ» ، فَقَالَ: بَلْ هُوَ أَحَقُّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَيْكَ مِنْ أَنْ تَمْشِيَ إِلَيْهِ ، فَأَجْلَسَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لَهُ: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ» فَأَسْلَمَ" رواه ابن حبان في صحيحه

ثم بايع النساء بعد الرجال على: {أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}.

وممن بايع يومئذ من النساء هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، جاءت متنقبة متنكرة، خوفاً على نفسها مما كانت قد فعلت بنعش حمزة.

فلما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء وقال في البيعة: "ولا يسرقن ولا يزنين". قالت هند رضي الله عنها: وهل تزني الحرة وتسرق؟! فلما قال: "ولا يقتلن أولادهن". قالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم كبارًا. وشكت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجها أبا سفيان أنه شحيح لا يعطيها من الطعام ما يكفيها وولدها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك وولدك".

فلما تمت لها البيعة قالت: يا رَسولَ اللَّهِ واللَّهِ، ما كانَ علَى ظَهْرِ الأرْضِ أهْلُ خِبَاءٍ أحَبَّ إلَيَّ أنْ يَذِلُّوا مِن أهْلِ خِبَائِكَ، وما أصْبَحَ اليومَ علَى ظَهْرِ الأرْضِ أهْلُ خِبَاءٍ أحَبَّ إلَيَّ أنْ يَعِزُّوا مِن أهْلِ خِبَائِكَ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - "وأيضاً والذي نفس محمد بيده".

وأهدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم جديين، واعتذرت من قلة ولادة غنمها، فدعا لها بالبركة في غنمها فكثرت، فكانت تهب وتقول: هذا من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام.

✉وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد جلس أسفل من مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبلغ الناس ويبايعهم عنه، وكانت بيعة النساء كلاماً بغير مصافحة.

✉وقد جاء بعض الناس ليبايعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الهجرة فقال: "ذهب أهل الهجرة بما فيهم، ولا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا".

❍المعنى لا هجرة من مكة بعدما فتحها الله على نبيه عليه الصلاة والسلام، وليس المعنى نفي الهجرة بالكلية لا، المراد: لا هجرة بعد الفتح يعني: من مكة إلى المدينة؛ لأن الله سبحانه جعلها دار إسلام بعد فتحها، فلم يبق هناك حاجة إلى الهجرة منها، بل المسلمون فيها يبقون فيها. وأما الهجرة نفسها فهي باقية؛ ولهذا جاء في الحديث الآخر الصحيح: لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة فمن كان في بلاد الشرك واستطاع أن يهاجر فعليه أن يهاجر. ابن باز رحمه الله

أناس أهدرت دماؤهم:

✉وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أهدر يومئذ دماء أناس عظمت ذنوبهم، وكبرت جرائمهم، فأمر بقتلهم حتى ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فمنهم من حقت عليه كلمة العذاب وقتل، ومنهم من أدركته عناية الله فأسلم، فأما الذين قتلوا فهم: ابن خَطَلٍ، وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ، والحارث بن نفيل، وقينة لابن خطل، أربعة نفر، يقال: أيضاً الْحَارِث بْن طَلَاطِل الْخُزَاعِيّ، وأم سعد، مع احتمال أن تكون أم سعد هي مولاة ابن خطل، فإذن خمسة أو ستة نفر.

✉وسبب قتل ابن خطل مَا رَوَى اِبْن إِسْحَاق فِي الْمَغَازِي:(إِنَّمَا أُمِرَ بِقَتْلِ اِبْن خَطَل لِأَنَّهُ كَانَ مُسْلِمًا فَبَعَثَهُ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصَدِّقًا وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَار وَكَانَ مَعَهُ مَوْلًى يَخْدُمهُ وَكَانَ مُسْلِمًا ، فَنَزَلَ مَنْزِلًا ، فَأَمَرَ الْمَوْلَى أَنْ يَذْبَحَ تَيْسًا وَيَصْنَع لَهُ طَعَامًا ، فَنَامَ وَاسْتَيْقَظَ وَلَمْ يَصْنَع لَهُ شَيْئًا ، فَعَدَا عَلَيْهِ فَقَتَلَهُ ثُمَّ اِرْتَدَّ مُشْرِكًا ، وَكَانَتْ لَهُ قَيْنَتَانِ تُغَنِّيَانِ بِهِجَاءِ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

✉وأما الذين أسلموا - وكانوا قد هربوا أو اختفوا، ثم استؤمن لهم فجاؤوا وأسلموا - فهم عَبْد اللَّه بْن سَعْد بْن أَبِي سَرْح، وعكرمة بن أبي جهل، وهَبَّار بْن الْأَسْوَد، وقينة أخرى لابن خطل، أربعة نفر، قيل: وأيضاً كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان. سبعة نفر.

❍عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ: فَأَمَّا اِبْنِ أَبِي سَرْح فَكَانَ أَسْلَمَ ثُمَّ اِرْتَدَّ ثُمَّ شَفَعَ فِيهِ عُثْمَان(كان اخوه من الرضاعة) يَوْم الْفَتْح إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَقَنَ دَمَهُ وَقَبْل إِسْلَامه.

❍وَأَمَّا عِكْرِمَةُ : (فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ ، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرِمَةُ : وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنْ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا ، فَجَاءَ فَأَسْلَمَ).

❍وَأَمَّا هَبَّار فَكَانَ شَدِيد الْأَذَى لِلْمُسْلِمِينَ وَعَرَضَ لِزَيْنَب بِنْتِ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا هَاجَرَتْ فَنَخَسَ بَعِيرهَا فَأُسْقِطَتْ، وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ الْمَرَض بِهَا حَتَّى مَاتَتْ.

☜فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْفَتْح بَعْد أَنْ أَهْدَرَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَمِهِ أَعْلَنَ بِالْإِسْلَامِ فَقَبِلَ مِنْهُ فَعَفَا عَنْهُ.

واختفى آخرون خوفاً على أنفسهم دون أن يكون قد أهدرت دماؤهم، منهم صفوان بن أمية، وزهير بن أبي أمية، وسهيل بن عمرو، ثم أسلم هؤلاء كلهم، ولله الحمد.

🗐صلاة الفتح:

ودخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضحى في بيت أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنه -، فاغتسل وصلى ثمان ركعات صلاة الفتح، يسلم في كل ركعتين، وكانت أم هانئ قد أجارت حموين لها، وأراد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن يقتلهما، فسألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال: قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ.

❍الثماني ركعات التي صلاها الرسول ﷺ: سنة الضحى ولا صلاة الفتح؟ بعض أهل العلم سماها صلاة الفتح، وبعضهم قال: إنها سنة الضحى، والأقرب أنها تابعة لهذا وهذا، صلاة الضحى سنة

وقربة، ويسن لمن فتح الله عليه أن يفعلها كفعله ﷺ، فعله ﷺ يفعل هذه الركعات شكرًا لله عز وجل على ما منّ به من الفتح. ابن باز رحمه الله تعالى

بلال يؤذن على ظهر الكعبة:

وحان وقت صلاة الظهر، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بلالاً، فأذن على ظهر الكعبة، وكان ذلك بمثابة إعلان عن ظهور الإسلام، وقد راع ذلك المسلمين بقدر ما أغلظ المشركين، والحمد لله رب العالمين.

إقامة رسول الله - صلى الله عليه وسلم – بمكة:

ولما تم فتح مكة تخوف الأنصار أن يقيم بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، لأنها بلده وبلد عشيرته وقومه - وذلك حين كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الصفا، رافعاً يديه يدعو - فلما فرغ من الدعاء قال لهم: {معاذ الله، المحيا محياكم والممات مماتكم} فاطمأن الأنصار وذهب خوفهم وفرحوا.

"فلمَّا قضى طوافَه أتى الصَّفا فعَلَا حيثُ ينظُرُ إلى البيتِ فجعَل صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يرفَعُ يدَه وجعَل يحمَدُ اللهَ ويذكُرُ ما شاء أنْ يذكُرَه والأنصارُ تحتَه فقال بعضُهم لبعضٍ أمَّا الرَّجلُ فقد أدرَكتْه رغبةٌ في قريتِه ورأفةٌ بعشيرتِه ونزَل الوحيُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال أبو هُريرةَ: وكان لا يَخفى علينا إذا نزَل الوحيُ ليس أحدٌ منَّا ينظُرُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بل يُطرِقُ حتَّى ينقضيَ الوحيُ فلمَّا قُضي الوحيُ قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (يا معشرَ الأنصارِ قُلْتُم: أمَّا الرَّجلُ فقد أدرَكتْه رغبةٌ في قريتِه ورأفةٌ بعشيرتِه) قالوا: قد قُلْنا ذاك يا رسولَ اللهِ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (كلَّا إنِّي عبدُ اللهِ ورسولُه هاجَرْتُ إلى اللهِ وإليكم، المَحْيا محياكم والمَماتُ مماتُكم) فأقبَلوا يبكون ويقولون: واللهِ ما قُلْنا الَّذي قُلْنا إلَّا ضنًّا باللهِ ورسولِه قال: (وإنَّ اللهَ ورسولَه يُصدِّقانِكم ويعذِرانِكم). صحيح ابن حبان

✉نعم بقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة تسعة عشر يوماً يجدد معالم الإسلام، ويطهرها من آثار الجاهلية، وقد جدد أنصاب الحرم(علاماتها)، ونادى مناديه: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره.

🗐هدم عزى وسواع ومناة:

✉ولخمس وعشرين من رمضان بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد في ثلاثين فارساً إلى نخلة، ليهدم العزى وهيكلها، فتوجه إليها، وهدمها، وكانت أكبر أصنامهم.

✉ثم أرسل عمرو بن العاص في رمضان نفسه لهدم سواع، وهو أعظم صنم لهذيل، كان هيكله برهاط على قرابة 150 كيلو متراً شمال شرقي مكة فذهب إليه وهدمه، وأسلم سادنه لما رأي من عجزه.

✉ثم بعث سَعِيدِ بْنِ زَيْدِ الْأَشْهَلِيُّ، - رضي الله عنه - في رمضان نفسه إلى مناة في عشرين فارساً، وكانت بِالْمُشَلَّلِ عند قديد، وهي صنم كلب وخزاعة وغسان والأوس والخزرج، فأتاها وكسرها، وهدم هيكلها.

✉ثم بَعَثَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ إلى بَنِي جَذِيمَةَ، فَدَعَاهُمْ إلى الإسْلَامِ، فَلَمْ يُحْسِنُوا أنْ يقولوا: أسْلَمْنَا، فَجَعَلُوا يقولونَ: صَبَأْنَا صَبَأْنَا، فَجَعَلَ خَالِدٌ يَقْتُلُ منهمْ ويَأْسِرُ، ودَفَعَ إلى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أسِيرَهُ، حتَّى إذَا كانَ يَوْمٌ أمَرَ خَالِدٌ أنْ يَقْتُلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا أسِيرَهُ، فَقُلتُ: واللَّهِ لا أقْتُلُ أسِيرِي، ولَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِن أصْحَابِي أسِيرَهُ، حتَّى قَدِمْنَا علَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدَهُ فَقالَ: اللَّهُمَّ إنِّي أبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ خَالِدٌ، مَرَّتَيْنِ. صحيح البخاري

⇦ ثم بعث علياً - رضي الله عنه - بمال، فودى قتلاهم، وأعطى بدل ما ضاع من أموالهم، وفضل فضل فتركه لهم.

❍وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر لأجل ما فعله خالد، فلما رجعوا وأخبروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذلك قال: "مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان أحد ذهباً ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته".

وفي رواية قال النَّبيَّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - فقال لخالد مبيّنًا فضل عبد الرحمن بن عوف: (لا تَسُبُّوا أصْحابِي؛ فلوْ أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهِمْ ولا نَصِيفَهُ) صحيح بخاري

🗐غزوة حنين:

ولما تم فتح مكة اجتمعت أشراف قبائل قيس عيلان للشورى، وفي مقدمتها هوزان وثقيف، فقالوا: قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزوه قبل أن يغزونا، فأجمعوا أمرهم للحرب، واختاروا لقيادتها مالك بن عوف النصري، فتحشد جمع كبير، ونزل بأوطاس، ومعهم نساءهم وذراريهم وأموالهم، وكان فيهم دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ المشهور بأصالة الرأي، فلما سمع أصوات الصبيان والحيوان سأل مالكاً عن ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، وأشار أن يردهم إلى بلادهم، فلم يقبل مالك رأيه، وجمعهم في وادي أوطاس، وانتقل بالمقاتلين إلى وادي حنين، بجانب وادي أوطاس، ونصب فيه كمائن، وعلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتجمعهم فخرج من مكة يوم السبت السادس من شهر شوال، ومعه اثنا عشر ألف مقاتل، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عتاب بن أسيد.

✉وفي الطريق رأى المسلمون سدرة عظيمة كانت تعلق عليها العرب أسلحتهم، ويذبحون ويعكفون عندها، يقال لها: ذات أنواط، فقال بعضهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فقال: "الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى: اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إنها السنن، لتركَبُنَّ سنَنَ مَن كان قبلَكم".

✉وقال بعضهم نظراً لكثرة الجيش: لن نغلب اليوم، فشق ذلك على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

✉ولما كان عشية جاء فارس وأخبره بخروج هوزان بظعنهم ونعمهم وشائهم، فتبسم وقال: تلك غنيمة المسلمون غداً إن شاء الله.

✉وفي الليلة العاشرة من شهر شوال سنة 8 هـ وصل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى وادي حنين، فعبأ جيشه سحراً قبل يدخل، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب، ولواء الأوس لأسيد بن حضير، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر، وأعطي ألوية لقبائل أخرى، ولبس درعين والبيضة والمغفر، ثم بدأت مقدمة الجيش تنحدر بالوادي ، وهي لا تعلم بوجود كمائن العدو فيه، فبينما هي تنحط فيه إذ العدو يمطر عليهم النبال كأنها جراد منتشر، وشد عليها شدة رجل واحد، فاضطربت مقدمة الجيش بهذه المفاجأة، وانكشف عامة من كان فيها من المسلمين، وتبعهم من كان خلفهم، فصارت هزيمة عامة.

✉وسر ذلك بعض المشركين وبعض حديثي العهد بالإسلام، فقال أبو سفيان: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال أخ لصفوان: ألا بطل السحر اليوم، وقال له آخر: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبدا، فغضب عليهما صفوان - وهو مشرك - وعكرمة بن أبي جهل - وهو حديث العهد بالإسلام - وانتهارهما.

✉أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فثبت في قليل من المهاجرين والأنصار، وطفق يركض بغلته ليتقدم نحو العدو، وهو يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب وأخذ أبو سفيان بن الحارث بلجام بغلته، والعباس بركابه لئلا يسرع نحو العدو، فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن البغلة ودعا ربه واستنصره، وأمر العباس وكان جهوري الصوت أن ينادي أصحابه، فنادى - وملأ الوادي بصوته – ألا ! أين أصحاب السَّمُرة ؟ فعطفوا نحو الصوت عَطفةُ البقرِ على أولادِها، يقولون لبيك، لبيك، حتى إذا اجتمع منهم مائة استقبلوا العدو، واقتتلوا.

✉وصرفت الدعوة إلى الأنصار، ثم إلى بني الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين، واحدة تلو الأخرى، حتى اجتمع حوله - صلى الله عليه وسلم - جمع عظيم، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروها، فكر المسلمون واحتدم القتال، فقال - صلى الله عليه وسلم "الآن حمي الوطيس" وأخذ قبضة من تراب فرمى بها وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فملأ أعينهم تراباً، فلم يزل حدَّهم(بأسَهم وجدَّتَهم وسيوفَهم وشِدَّتَهم) كليلاً (ضعيفًا) وأمرهم مدبراً، حتى تفرقوا وهربوا، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، حتى أخذوا النساء والذراري، وأسروا كثيراً من المحاربين، وجرح يومئذ خالد بن الوليد جراحات بالغة، وأسلم كثير من مشركي مكة لما رأوا من عناية الله برسوله.

❍وهذا الحدث وما رافقه من مجريات ووقائع، هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى، بقوله: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} [التوبة: 25، 26].

❍لقد كان موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وثباته في هذه المعركة مع قلة من الصحابة - دليلاً ناصعًا، وبرهانًا ساطعًا على عمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وتحققه بأن نتيجة المعركة سوف تكون إلى جانب الحق. وإنك لتبصر صورة نادرة، وجرأة غير معهودة في مثل هذه المواقف؛ فقد تفرقت عنه صلى الله عليه وسلم الجموع، وولوا الأدبار، لا يلوي واحد منهم على أحد، ولم يبق إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسط ساحات الوغى، حيث تحفُّ به كمائن العدو من كل جانب، فثبت ثباتًا عجيبًا، امتد أثره إلى نفوس أولئك الفارّين، فعادت إليهم من ذلك المشهد رباطة الجأش، وقوّة العزيمة.

❍ومن المواقف المشرفة في هذه المعركة موقف الصحابية أم سُليم رضي الله عنها، وكانت مع زوجها أبي طلحة رضي الله عنه. وقد روت كتب الحديث والسِّيَر بسند صحيح وقائع خبرها.. فعن أنس رضي الله عنه، أن أم سليم -رضي الله عنها- اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم، معها خنجر. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك، قالت: يا رسول الله، اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلقاء، انهزموا بك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أم سليم، إن الله قد كفى وأحسن».

❍فكانت حنين بهذا درسًا، استفاد منه المسلمون غاية الفائدة، وتعلموا منه قواعد النصر وقوانينه، قال تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: 7].

❍فالنصر والهزيمة ونتائج المعارك لا يحسمها الكثرة والقلة، وإنما ثمة أمور أخر وراءها، لا تقلّ شأنًا عنها، إن لم تكن تفوقها أهمية واعتبارًا، لتقرير نتيجة أي معركة.

مطاردة المشركين:

✉ولما هرب المشركون تفرقوا ثلاث فرق، فرقة لحقت بالطائف، وهم الأكثر، فرقة لحقت بنخلة، وفرقة عسكرت بأوطاس، فأرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أوطاس أبا عامر الأشعري، عم أبي موسى الأشعري - رضي الله عنهما - في جماعة من المسلمين، فبددهم، وظفر بما كان معهم من الغنائم، وقد استشهد أبو عامر الأشعري في هذه المعركة، وخلفه أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه - فرجع مظفراً منصوراً.

✉وطاردت طائفة من فرسان المسلمين فلول المشركين المنهزمين إلى نخلة، فأدركت دريد بن الصمة، وقتلته.

✉وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بجمع الغنائم والسبي، وكانت نحو أربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقيه من الفضة، وستة آلاف سبي، فجمع ذلك كله بالجعرانة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري.

غزوة الطائف:

ثم تقدم إلى الطائف، ومر في الطريق بحصن لمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ النَّصْرِيّ فأمر بهدمه، ولما وصل إلى الطائف وجد العدو قد تحصن به، ومعه قوت سنة، ففرض عليه الحصار، وكان المسلمون نازلين قريباً من العدو، فرشقهم بالنبال حتى أصيب عدد من المسلمين بجراحات، فارتفعوا إلى محل مسجد الطائف اليوم.

واختار المسلمون عدة تدابير لإرغام العدو على النزول، ولكنها لم تنجح، وكان خالد بن الوليد يخرج كل يوم يدعوهم إلى المبارزة، فلم يخرج منهم أحد، ونصب عليهم المنجنيق فلم يؤثر.

ودخل جمع من أبطال المسلمين تحت دبابتين لينقبوا في جدار الحصن، فرمى العدو عليهم قطعات من حديد محماة بالنار، فاضطروا إلى الرجوع، ولم يتمكنوا من نقب الجدار، وقطعت أعنابهم ونخيلهم فناشدوا الله والرحم فتركت، ونادى منادي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أيما عبد نزل إليها من الحصن فهو حر، فنزل ثلاثة وعشرون عبداً فيهم أبو بكرة - تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة يستقي عليها، فكناه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأبي بَكْرَةَ - فشق فرار هؤلاء العبيد عليهم.

وطال الحصار دون جدوى - فقد دام حوالي عشرين يوماً، وقيل شهراً كاملاً - فاستشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نَوْفلَ بن معاوية الدِّيليّ ، فقال: هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك فأمر بالرحيل، وطلب بعض المسلمين أن يدعو عليهم فقال: اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم مسلمين.

تقسيم الغنائم والسبي:

وعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطائف إلى الْجِعِرانَةِ، فمكث بها بضعة عشر يوماً لا يقسم الغنائم، يبتغي أن يقدم هوازن تائبين، فيحرزوا أموالهم وسباياهم، فما جاء أحد، فأخرج الخمس من الغنيمة، وأعطاها لأناس ضعفاء الإسلام يتألفهم، ولأناس لم يسلموا بعد، ليحبب إليهم الإسلام، فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية من الفضة ومائة من الإبل، وأعطى مثل ذلك لابنه يزيد، ثم لابنه الآخر معاوية، وأعطى صفوان بن أمية مائة ثم مائة ثم مائة - أي ثلاثمائة - من الإبل، وأعطى كلا من حكيم بن حزام، والحارث بن الحارث بن كلدة، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، والعبّاس بن مِرْداس ، وعلقمة بن علاثة، ومالك بن عوف، والعلاء بن الحارثة، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى وغيرهم مائة مائة من الإبل، وأعطى آخرين خمسين خمسين، وأربعين وأربعين حتى شاع بين الناس ان محمداً يعطي عطاء ما يخاف الفقر، فازدحم الأعراب يطلبون منه، حتى ألجأوه إلى شجرة، فتعلق بها رداؤه، فقال: رُدُّوا عَلَيَّ رِدائي ، فَوَاللهِ لو أن لي بعددِ شجرِ تِهامةَ نَعَمًا لقَسَمْتُه عليكم ، ثم لا تَلْقَوْنِي بخيلًا ، ولا جَبانًا ، ولا كَذُوبًا.

ثم أخذ وبرة من سنام بعير وقال: والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخُمُسُ مردودٌ فيكم، فأَدُّوا الخِيَاطَ والمَخِيطَ، فإنَّ الغُلولَ يكونُ على أهلِه عارًا، ونارًا، وشَنارًا يومَ القيامةِ، فرد الناس ما كانوا أخذوه من الغنيمة، ولو كان شيئاً زهيداً.

ثم أمر زيد بن ثابت بتقسيم الغنيمة، والذي يصيب الرجل الواحد بعد إخراج الخمس هو حوالي بعير ونصف بعير، وشاتين ونصف شاة، وعشرة دراهم، وثلث السبى الواحد، فإذا صرف نصيب الرجل إلى أحد هذه الأشياء، بعد إعطائه عشرة دراهم، يصير له إما أربعة من الإبل فقط، وإما أربعون شاة فقط، وإما ثلثا السبي والواحد فقط.

المراجع:

❶روضة الأنوار في سيرة النبي المختار المباركفوري.

❷الرحيق المختوم المباركفوري.

❸ غزوة حنين، تداعياتها ونتائجها: راغب السرجاني.